

من وسائل البربر الجوى في الاسلام :

## (١) الحمام الزاجل

للأستاذ عطا الله ترزى باشى

لقد تحقق من دراسة العلماء الباحثين أن فكرة استخدام الحمام ظهرت منذ وجود البشرية على وجه البسيطة . واستفتح العالم الانكازى ( داروين ) ان المصريين القدماء استخدموا الحمام قبل الأسرة الفرعونية الخامة . وبذكر ( هوميروس ) أن اليونانيين كانوا معروفين بتربية الحمام منذ المصور الثارة ، كما استفاد الرومان من هذه الوسيلة أثناء استيلائهم على بلاد اليونان . ويشير المؤلف نفسه إلى ان استخدام الحمام عم في الهند حوالى سنة ١٦٠٠ م .

وأول اشارة وردت في الكتب المقدسة عن استخدام الحمام هو ما جاء في التوراة، فقد اطلق النبي نوح عليه السلام حماماً من سفينته أثناء الطوفان ليستدل به عما إذا كان الماء قد غيض . ويشير ابوسفيان الثورى إلى ماورد في القرآن حول كلمة «المؤتفكات» إلى أنها مدن جرت بينها المخاربة بالحمام الزاجل قبل الميلاد (بأنى (راجع نجيب عاصم : كوجرجين بوسته مى « في اللغة التركية » ص ١١) .

وقد قام الحمام الزاجل في العهد الفارسة بوظيفة البريد والتلغراف . ويقال أن أول عهد بهذه الوظيفة كان في سنة ٧٨٦ ق م بأثينا ؛ فقد أحضر أحد اليونانيين حمامة من جزيرة ( أوجين ) وبعد أن حضر مسابقة في الألعاب كانت له الغلبة فيها أرسل هذه الحمامة إلى أهله لتحمل إليهم خبر فوزه، فحدثت هذه الرسالة فكرة استخدام الحمام في المواصلات البريدية ثم انتشرت هذه الفكرة في أكثر بلاد العالم (عبد الفتى غنام: الحمام وتربيته ص ٨) ولأن بزغ فجر الاسلام ادخلت بحسينات كبيرة في طريقة استخدام الحمام الزاجل حتى امتاز المسلمون في ذلك على سائر

(١) ويقال لحمام الرسالة وحمام البطاق وقيل أن كلمة البطاق مأخوذة عن « بلا كيون» ومعناها في اليونانية الرسالة .

الأمم . ولقد قيل أنهم كانوا يستخدمونه في المواصلات البريدية وخاصة خلال الحركات العسكرية بدرجة لم يبلغها الأورديون في استخدامهم الحمام في الحروب الحاضرة ( سياح كوكرجينر « في اللغة التركية » ص ١٤ )

وقد أجمع المؤرخون - كما جاء في كتاب الحيوان للجاحظ - على أن المسلمين كانوا أول من استخدم الزاجل في الرسائل في القرن الثانى للهجرة .

ويبحث المؤرخ التركي عبدالمعز قره جلمى في كتابه المشهور «روضة الأبرار» عن استخدام الخليفة المتقى بالله في سنة ٣٢٣ هـ الحمام الزاجل في بغداد؛ فقد أرسل هذا الخليفة خطاباً بواسطة الحمام إلى الأمير المصري آقشيد يدعوهُ إلى معاونته على الأمير تونك ويبحث المؤرخ نفسه في حوادث سنة ٨٣٧٢ عن استخدام الحمام في أغراض أخرى غير الرسالة (١) .

ورأى صاحب (التعريف) ان الزاجل نشأ في الموصل بالمراق وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا حتى أقردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . وللقاضى محى الدين بن عبدالظاهر في ذلك كتاب سماه « تمام الحمام » .

وأما أول من نقله من الموصل فهو الشهيد نور الدين بن محمود زنكي سنة ٥٦٥ هـ في هذه السنة أخذ نور الدين بالشام الحمام الموادى وهى التى يقال لها المناسيب وهى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها ، وجهلها في جميع بلاده فساعدهت كثيراً في حروبه أيام الفرنج (عبدالفتى غنام : نفس المرجع ص ١١ و ص ٨٥) (٢)

والواقع أن السيد خليل داهرى من مؤلفى القرن الثانى يحدثننا عن الأبراج التى شيدت في نقل الرسائل فصارت مدينة الموصل حينذاك مركزاً هاماً لشبكة واسعة من دوائر المراسلات . وكان نور الدين بن محمود قد وسع هذه الشبكة داخل البلاد التى فتحها اتفق الأخبار في أسرع وقت ممكن، فأمر بتشيد الأبراج المسماة (البريد) في مصر وسوريا بأن لا تزيد المسافة بين كل برجين عن اثني عشر ميلاً . وقد عين في هذه الأبراج حراساً براقبون

(١) وانظر الدكتور ابراهيم المدوى في مجلة الشمع العربى العدد ٢١ من السنة العاشرة وانظر في اللغة التركية سياح كوكرجينر ص ٤٢  
(٢) تلاح من مجلة المنطلق (ديسمبر ١٩٠٢)

الأثر في نفوس المسلمين .  
وكذلك استخدم السلطان صلاح الدين الأيوبي الحمام في  
إرسال التماسح اللازمة إلى المحصورين في عكا فشيده برجاً في جبل  
« خرويه » الاتصال بهم ، فكانت الاتصالات قوية حسب المرام  
مدة حواين كاملين ( ٥٨٤ - ٥٨٧ هـ ) ( نجيب عاصم : نفس  
المرجع ، ص ٢٠ ) .

واقف أساء بعض الزعماء المابئين والرؤساء الفسدين في  
القيام باستخدام الحمام في أغراضهم الخاصة للوصول به إلى غايات  
شخصية بحت . ومن بين تلك الوقائع غير المشروعة ما قام به (حسن  
بن صباح) رئيس الجمعية الحشيشية بالاستفادة من الحمام الزاجل في  
تحقيق الأغراض التي من أجلها أنشئت الجمعية . وفي سنة ٥٥٦٥ هـ  
تولى رئاسة هذه الجمعية (رشيد الدين سنان) الذي تمكن من  
تأسيس إمارة في سوريا باستخدام الحمام بصورة سرية وتزويد  
الأهلين بالوقائع التي تحدث في البلاد النائية قبل وصول أخبارها  
إلى الناس فكان بذلك يعتبر نفسه شيخاً كريماً وإماماً جليلاً يرشد  
الناس إلى الخير ويأمرهم باتباع طريقته .

وكان « عبد الله بن ميمون » رئيس مذهب الإبائيلية يتقرباً  
بالحوادث قبل سماع الناس لها ، باستخدامه الحمام الزاجل فكان له  
مركزاً ممتازاً بين أفراد حاشيته ( نجيب عاصم : المرجع السابق  
ص ٢١ ) .

ويذكر الأستاذ محمد كرد علي في مقال نشره في مجلة القطف  
« ديسمبر سنة ١٩٠٢ هـ » إنه منذ سنة ١٨٥٠ - ١٨٦٠ بطل  
إستعمال الزاجل بين الإسكندرونة وحلب لأن بعض الموص  
الأكراد أطالوا يد التمدي عليها وقتلوا أكثرها . ويشير إلى أن  
بعض المؤرخين ذكروا أن الدولة العثمانية أبطلت استعمال الزاجل  
في أواخر القرن الحادي عشر بعد أن لبث زمناً مستملاً في بلادها  
فكان العثمانيون أجمع الناس في تربية الزاجل ... بيد أننا لم نجد  
في كتب القوارخ العثمانية إشارة إلى ذلك . الدولة العثمانية قد  
استخدمت الحمام في شؤون الرسالة . ولا تقول بهذا القول جزافاً  
فإن العالم التركي المعروف نجيب عاصم يؤيدنا في كتابه السالف  
الذكر . فلا ندري من أين أتى الأستاذ محمد كرد علي بتلك المعلومات  
وهي المصادر التركية التي اعتمد عليها في ذلك !

هذا والله ترزى باشي

( كركوك - العراق )

حركات الحمام طيلة الليل والنهار ، وخصص من الخزينة المبالغ  
السكافية لإدارة شؤون هذه التشكيلات . ( نجيب عاصم : المرجع  
السابق ص ١٨ ) .

وفي سنة ٦١٣ هـ قام الخليفة العباسي (أحمد) بتأسيس شبكة  
أقوى وأحسن مما أسسه نور الدين كما سبق ذكره .

ومما يذكر في هذا الصدد أن أمير الجيش الإسلامي نجر الدين  
أعلن في سنة ٦٤٨ هـ حادثة سقوط مدينة دمياط من جانب  
(سن لويس) ملك فرنسا بجمام أرسله إلى السلطان صالح نعيم الدين .  
ويذكر (جو وانويل) الكاتب الخاص لـ (سن لويس)  
أن المسلمين أبلغوا خبر ورود الصليبيين إلى بلاد السودان ثلاث  
سرات بالحمام الزاجل .

ويذكر صاحب كتاب « حائل الحمامات » أن الرائل  
كانت تحمر في ورق حريري خاص يسمى بورق الطير وتوضع في  
قوارير ذهبية خفيفة تعلق في عنق الحمام أو في ذيله وأحياناً كانت  
تربط بمخارجه ، ويكتب في الورقة تاريخ يوم الإرسال وساعة  
حركة الحمام . وقد جرت العادة أن تكتب في أول الرسالة  
عبارة « الحمد لله » وفي آخرها « والله تكنتي » .

وكانت المخبرات تجرى بين البلاد حينذاك كما يلي :

— بين القاهرة والإسكندرية ، ودمياط ، وغزة ؛

— وبين غزة والقدس ، والمدفد ، والشام ؛

— وبين الشام وبعلبك ، وحلب ، وطرابلس الشام ؛

— وبين حلب ومـنى .

وقد اعتادوا قديماً على إرسال نسخة ثانية من الرسالة تكون  
طبقاً لصورة الأصل وذلك لإزالة الخوف الناجم من ضياع  
الأصل في الطريق .

وعند وصول الحمام إلى محله يقوم الموظف المختص بقراءة  
الرسالة ووضع تاريخ يوم وصولها والساعة التي استلمها فيها .  
وشاع استخدام الحمام في الحروب الصليبية؛ ففي سنة ٤٩٢ هـ  
حينما حاصر الصليبيون مدينة القدس ، قام القائد العربي في موضع  
« حصار » الواقع بين القدس وأنطاكية ، بإبلاغ خبر تسليم المدينة  
بواسطة الحمام . وصادف أن وقعت حمامة بالقرب من « عكا »  
بيد الصليبيين وفي عنقها رسالة فيها تفاصيل الحركات الحربية لدى  
المسلمين فاطلع الفرنج على أسرارها ؛ وكان لهذه الواقعة أسوأ